مكتبة متخصصة
تاريخ الإسلام والحضارة
١٣٧٣

المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

تصدرها وزارة الثقافة - دار الشؤون الثقافية العامة

المجلد الثاني والثلاثون
العدد الثالث ٢٠٠٥م ١٤٢٦هـ

عنوان المراسلة

دار الشؤون الثقافية العامة
- الأعظمية -
ص. ب : ٤٠٣٢ بغداد
جمهورية العراق
هاتف : ٤٤٣٦٠٤٤
فاكس : ٤٤٨٧٦٠

الأسعار

العراق: ٥٠٠ دينار، الأردن: دينارات، الإمارات: ٣٠ درهماً، اليمن: ٣٠ ريالاً، مصر: ٣ جنيهات، ليبيا: ٣ دنانير، الجزائر: ٦٠ ديناراً، تونس: دينارات، المغرب: ٣٠ درهما.

المشاركة السنوية

٥٥ دولاراً في الأقطار العربية.
في دول العالم الاخرى ٨٠ دولاراً.

رئيس التحرير
د. محمد حسين الاعرجي

هيأة التحرير

مدير التحرير
احمد عبد زيدان

سكرتير التحرير
محمود الظاهر

الهيأة الاستشارية
أ.د. خديجة الحديثي
أ.د. كمال مظهر
أ.د. فائز طه عمر
أ.د. داود سلوم
أ.د. مالك المطلبي
الاستاذ حسن عريبي

التصحيح اللغوي
سليم سلمان
نجلة محمد

الإشراف الفني والتصميم
جنان عدنان لطيف

www.dorat-ghawas.com

البستي بين يدي العاشور..... د. محمد حسين الأعرجي ٣

مقابسات في الفلسفة الصوفية.

القسم العاشر..... عزيز عارف ٤-١٥

الجوانب الفنية في صور كتاب

الحيوان للجاحظ..... د. سلسل محمد العاني ١٦-٢٧

مفهوم العدل في فلسفة الفارابي..... أ.د. ناجي التكريتي ٢٨-٣٠

مقدمة القصيدة عند محمد بن حميد

الهمداني اليمني بين التقليد والتجديد..... د. محمد احمد العامري ٣١-٥١

جهود القاضي الفاضل السياسية والعسكرية

والثقافية في دولة صلاح الدين الأيوبي.....الدكتور علي نجم عيسى ٥٢- ٥٦

شعر يوسف بن لؤلؤ الذهبي [ت ٦٨٠ هـ]

القسم الثالث ..... تحقيق عباس هاني الجراخ ٥٧-٧٧

ديوان أبي الفتح البستي

النسخة الكاملة - القسم الأول- ..... تحقيق / شاكر العاشور ٧٨-١٠٦

تحسين القبيح وتقبيح الحسن

في طبعته المسروقة .....أ.د. سامي علي عبد الجبار ١٠٧-١٠٨

الدكتور ابراهيم السامرائي ١٩١٦-٢٠٠١..... عبد الله السريحي ١٠٩-١٢٨

المنتخب من مخطوطات مكتبة الجوادين

العامة في الكاظمية..... بقلم حكمت رحماني ١٢٩-١٣٩

www.dorat-ghawas.com

الجوانب الفنية في صور كتاب الحيوان للجاحظ

د. سلسل محمد العاني
مركز إحياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد

المؤلف

مؤلف المخطوطة ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني المعروف بالجاحظ، من كبار اعمدة الأدب العربي ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة. ولد بالبصرة في سنة ١٦٣هـ/٧٥٩م، واقام ببغداد مدة من الزمن وهي تعيش في ابهى عصورها. وتوفي بالبصرة عام ٢٥٥هـ/٨٦٩م بعد سقوط مجلدات من الكتب عليه[١].

كان مولعا بقراءة المعارف كافة حتى انه كان يكتري دكاكين الكتب ويبيت فيها ولا يتركها الا بعد ان يستوفي قراءة كل ما فيها من مصنفات[٢].

استقطبت كتاباته جمهور العامة لما تضمنته من طابع الهزل والملح والنوادر، كما استهوت الخاصة من الناس ونعني رجال الدولة والعلم[٣] لاحتوائها على العلوم الرفيعة والمسائل الفلسفية وتاريخ الامم والملل والحكم والأمثال. ويعكس اسلوبه من جهة اخرى شخصية كاتبه واهتمامه بالأنسان ما يدل على انه انسان واجتماعي[٤]. كتب في علوم كثيرة وما يهمنا هنا هو كتاب ((الحيوان)) الذي تناول فيه وصفا لأشكال وطبائع كائنات هذه المملكة، اضافة الى روايات عن بني البشر توزعت بين نصوص الكتاب.

اهدى الجاحظ كتابه الى محمد بن عبد الملك فوهبه خمسة الاف دينار، وتسلم مثلها عن كتابه ((البيان والتبيين)) من ابي داود، ومثلها ايضا عن كتابه "الزرع والنخيل" المهدى الى ابراهيم بن العباس الصولي[٥].

ضمن الجاحظ مؤلفه مقدمة توضح اهميته جاء فيها[٦]:

"كتاب معناه انبه من اسمه وحقيقته انق من لفظه وهو كتاب يحتاج اليه المتوسط العامي كما يحتاج اليه الخاصي ويحتاج اليه الريض كما يحتاج اليه الحاذق. اما الريض فللتعلم والدربة وللترتيب والرياضة والتمرين وتمكين العادة اذ كان جليله يتقدم دقيقه. وهذا الكتاب تستوي فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه العرب والعجم وان كان عربيا اعرابيا واسلاميا جماعيا فقد اخذ من طرف الفلسفة وجمع بين معرفة السماع وعلم الترجمة.. ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه المجد ذو الحزم ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الاريب ويشتهيه الغبي كما يشتهيه الفطن".

المخطوطة

أ . النص:

تحمل المخطوطة الرقم (Ar.A.F.D.١٤٠) وهي محفوظة في مكتبة الامبروزيانا في مدينة ميلانو بايطاليا، تحتوي على سبع وثمانين صفحة من القطع الكبير وهناك نقص في بدايتها

www.dorat-ghawas.com

ونهاياتها وجاءت فقرة في احدى صفحاتها نصها:

((تاريخ ملك الفقير عبد الرحمن المغربي (في) هذا الكتاب في مستهل ذي القعدة سنة اربعة (كذا)وعشرين والف وتاريخ تجليده في مستهل سنة خمسة(كذا) وعشرين والف وعدة اوراقه اربعة وتسعين(كذا) ورقة تم))[٧].

وما تعنيه الفقرة أن المخطوطة اصبحت في حوزة المالك عبد الرحمن المغربي في سنة ١٠٢٤هـ/١٦١٥م، وتم تجليدها في السنة التالية أي ١٠٢٥هـ/١٦١٦م، وبهذا تكون قد فقدت سبع ورقات بعد انتقالها الى مكتبة الامبروزيانا[٨].

استخدم في كتابة النص الخط الكوفي بكلمات كبيرة وواضحة برغم افتقاره للدقة. واضفى التنقيط وكثرة استخدام الحركات وصحة الاملاء مزيدا من الاهمية على الكتاب الأمر الذي يدل على دراية الناسخ باللغة العربية. وهذا الاعتناء والجودة في الخط قلما نجده في بقية المخطوطات عدا تلك التي تتناول موضوعي الدين والشعر[٩]. ويرجع تاريخ الخط الى القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وتحتوي الصفحة على سبعة عشر سطراً عدا الصفحات المزينة بالرسوم[١٠].

كان اول اصدار لكتاب الحيوان في عصرنا الحديث عام ١٣٢٣ - ١٣٢٥هـ/١٩٠٥ - ١٩٠٧م واحتوى على (١٠١٠٠) صفحة تقريباً[١١]. واعيد تصحيحه وتنقيحه من قبل عبد السلام محمد هارون في سنة ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م في القاهرة. واذا ما قارنا هذه الطبعة مع مخطوطة الامبروزيانا يمكننا الجزم ان المخطوطة تحتوي على اجزاء من الكتابين الأولين فقط[١٢].

وان عدد صفحاتها يجب ان يكون (١٠٠٠) صفحة تقريبا هذا اذا كانت بابعاد الورقة ذاتها وخط اليد وهذا يعني ان نسخة الامبروزيانا تبلغ (عشر) المخطوطة الأصلية[١٣].

ب. المنمنمات:

تحتوي جميع الملازم التي وصلت الينا على صور بدءاً من الملزمة السادسة، في حين ان الستة الأولى منها تضمنت النص فقط. فألحقت بالسبعة ٣ صور، والثامنة ٧ صور، والعاشرة احتوت على ١٢ صورة، رسمت ٦ منها بعناية كبيرة عكس الفنان فيها مهارته من خلال تعبيرات وانفعالات شخوصها.

احتلت المنمنمات مساحة واسعة من الصفحة اذ وضعت معظمها في وسط الصفحة، بغير أطر ولكن يحدث احياناً ان تحاط بخيط رفيع للغاية، واستخدم في رسمها الوان عدة وبشكل خاص اللون الذهبي[١٤].

توزعت مواضيع الصور على ٢٢ موضوعا: ٢٢ تمثل اشكالا لحيوانات، و٥ صور آدمية، و ٥ أخرى احتوت على العنصرين البشري والحيواني[١٥]، ومن بينها مشاهد جنسية بين الحيوانات وبين الحيوانات والبشر. وهي مشاهد غير مألوفة في المخطوطات العربية الأسلامية ونادرة الحدوث. وربما يعود السبب الى ان الفنان اراد ان يكون رسمه ملائماً للنص أي مادام الكتاب يتضمن فقرات وضحت مثل هذه الأمور، وبدون حرج، فانه بدوره لم يجد حرجاً من التقيد بما رآه الجاحظ امرا طبيعيا وواقعيا. يضاف الى ذلك ان ادانة الفنان لأختياره لهذه المناظر دون غيرها ستكون في محلها لو سلمنا ان مالك المخطوطة قد ترك امر اختيار المواضيع المصورة للرسام دون تدخل من جانبه. وهناك احتمال اخر كبير في ان مالكي المخطوطات، بشكل عام، لا يدفعون بالكتاب الراغبين بتصويره الا بعد قراءته وربما للمالك رغبة في تصوير مثل هذه المشاهد والمشار اليها في النص دون غيرها وفي هذه الحالة ما على الفنان الذي يتقاضى اجراً الا ان يمتثل لرغبة سيده.

لقد تناول الجاحظ في كتابه مواضيع عديدة مستقاة من الواقع حيث تناول النص روايات وطبائع البشر والحيوان على السواء وهذا يعني ان المؤلف وفر للفنان قاعدة عريضة من المواضيع المتباينة ليختار منها ما يشاء دون المساس بالذوق العام الا ان المزوق اطلق لخياله العنان باختياره ما يشاء من الفقرات التي يبدو انها جذبت انتباهه اكثر من غيرها.

نسبت مخطوطة ((الحيوان)) من جانبها الفني الى نهاية القرن السابع او النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الثالث عشر - الرابع عشر الميلادي بسبب ان تصاويرها عكست أسلوب المدرسة البغدادية[١٦]، في حين اجمع آخرون على نسبتها الى المدرسة المملوكية التي ازدهرت في سوريا ومصر بعد غزو هولاكو لبغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م حيث رحل عنها الكثير من اعلامها متوجهين

www.dorat-ghawas.com

الى اماكن اهلة توزعت على طول الدولة الاسلامية وعرضها ومنها سوريا ومصر والمغرب حتى ان البعض منهم وصل الى اقصى الشرق وعملوا في المدن التي انشأها المغول حديثا واصبحت سوريا ومصر المركز الحقيقي للحضارة بعد انتصار جيوش المماليك في معركة عين جالوت في عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م. وفي خضم هذا التحول السياسي حصل تغير واضح في مسار الحضارة العربية الاسلامية فقد تأثرت المدرسة العربية للتصوير بالتيارات الفنية التي كانت سائدة في الشرق الأدنى ووجدت طريقها الى سوريا ومصر[١٧].

لقد ظلت سوريا ومصر تحتفظان بالصدارة في حقل انتاج الكتب المصورة كما استمرت التقاليد الفنية المعروفة قبل الغزو المغولي سارية ويتضح ذلك في عدد من الكتب المصورة التي اعيد انتاجها ولكن بروحية مختلفة واتسمت انتاجاتها بالتدني مقارنة بالكتب العربية المنسوبة الى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي برغم ان الثلث الأخير من هذا القرن والنصف الاول من القرن الرابع عشر شهدا انتعاشا ضئيلا[١٨].

ويعد سبب تراجع الكتب العربية المصورة الى الوضع السياسي المضطرب الذي عاشته المنطقة بعد غزو المغول وهذا مما دفع رجال الدولة الى الأهتمام بتعظيم انفسهم باستخدام الألقاب والنعوت باعتبارهم حماة الدين والدولة وهو بالتأكيد من عمل الخطاط وليس الفنان. كما يلاحظ في هذه الفترة الميل الى انتاج مخطوطات مزوقة تعنى بالامور العسكرية والالات الحربية. ومن المخطوطات التي تشبه في اسلوبها الفني مخطوطة ((الحيوان)) للجاحظ نسختان من ((مقامات الحريري)) احداهما في فينا مؤرخة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م. والثانية في أكسفورد تحمل التاريخ ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، وثلاث نسخ من كتاب ((كليلة ودمنة)) تعود ملكيتها الآن الى مكتبات متفرقة في باريس وميونخ واكسفورد والأخيرة مؤرخة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م وهي السنة نفسها التي انجزت فيها مخطوطة الجزري ((الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل)) وموجودة حاليا في اسطنبول، مكتبة آيا صوفيا، رقم ٣٦٠٦. وقد نسبت المخطوطات الثلاث الى القرن الرابع عشر الميلادي أي العصر المملوكي[١٩]. وتجدر الأشارة الى ان اقدم مخطوطة مملوكية مصورة ((وهي دعوة الاطباء))، مؤرخة ٦٢٥هـ/١٢٧٣م للمؤلف الطبيب ابن بطلان الذي عاش في بغداد في القرن الحادي عشر الميلادي، ومحفوظة في مكتبة ميلانو (أ ١٢٥)[٢٠].

ان اسلوب مخطوطة الجاحظ منسوب الى العصر المملوكي لكنه يصعب تحديد القطر الذي انتجت فيه. فاسلوبها خاص، لم يتبع فيها الفنان اسلوب مدرسة فنية معينة لكنها بشكل عام تماثل منمنمات مخطوطتي ((كليلة ودمنة)) المحفوظتين في باريس واكسفورد. والتشابه نجده واضحا في اشكال النباتات والعمارة.

من هذا المنطلق يمكن نسبة كتاب ((الحيوان)) المصور الى سوريا. اما من الناحية التاريخية فترجع نسبته الى الربع الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[٢١].

وبرغم ان بعض المختصين بالتصوير الأسلامي اكدوا تدني المستوى الفني في العصر المملوكي فان للبعض منهم رأيا مخالفا. اشارت آتيل الى ان فن الكتاب انتعش وازدهر في هذا العصر، فالصور الرائعة التي انتجت في عصور سابقة عادت لتظهر من جديد لتزين عددا من المخطوطات مثل: ((مقامات الحريري)) و ((الميكانيك)) للجزري و "كليلة ودمنة" لابن المقفع.

ومن اهم صفات المدرسة المملوكية للتصوير تأثرها بالأساليب الفنية القديمة الى جانب مدرسة اواسط آسيا والشرق الأقصى كما يظهر ذلك واضحا في رسوم الطير البعيدة عن الطبيعة او كما تسمى بالخرافية، وزهور اللوتس ونوع آخر باللونين الأحمر والأبيض، ورسوم السحب الصينية التي وجدت طريقها الى الفن الاسلامي عن طريق المغول. وتمتاز المنمنمات المملوكية ايضا بكثرة الزخارف ورسوم البشر[٢٢] والاستخدام الغزير للون الذهبي والألوان الرئيسة. ولم يقتصر هذا الازدهار الفني على القاهرة ودمشق بل شمل بغداد ايضا التي كانت تحت الحكم الجلائري ورغم ان هذه الحقبة كانت محدودة الا ان انتاج المخطوطات المزوقة كان ضخما وبدا على صورها الأثر الكلاسيكي في حين ان بقية الكتب المصورة، وهي الغالبية، عكست تطور اسلوب جديد في التصوير[٢٣].

تناول الجاحظ بصورة عامة وصفا لأنواع مختلفة من

www.dorat-ghawas.com

الحيوانات صاحبه سرد لأحداث تاريخية واجتماعية صورت ضمنيات المخطوطة جانبا منها، والحق الفنان بعمله رسوما بشرية اضافة الى المناظر الطبيعية البرية والزخارف والقليل من العمائر و اولى جل اهتمامه تصوير افعال الحيوانات.

يتسم عالم الحيوان، كما هو معروف، بالضراوة والعنف وهو موضوع يستهوي عددا كبيراً من الناس لذلك نرى تصوير الحيوانات وبشكل خاص الضارية منها وهي تنقض على حيوان ضعيف كالأسد والغزال موجودة على آثار اسلامية كثيرة مثل الأرضية الفسيفسائية في قصر خربة المفجر، ومشاهد الصيد بالكلاب والطيور الجارحة التي زينت عددا من الآثار المعدنية ولم يلبث ان انتقل هذا الموضوع المثير الى المخطوطات.

نسبت رسوم الحيوانات في المخطوطات الأسلامية الى تأثر المزوق بالأعمال الفنية التي انتجت في مرحلة ما قبل الأسلام والتي تعود في اصولها الى تقاليد غربية وكلاسيكية ولهذا السبب فان التصاوير التي ظهرت في غرب العالم الاسلامي تبنت، غالبيتها، المفاهيم التي كانت سائدة في المرحلة الكلاسيكية المتاخرة في منطقة البحر المتوسط[٢٢].

واذا ما امعنا النظر في صور المخطوطات التي انتجت في العصور الأولى سيتضح ان الأسلوب بعينه موجود في رسم الحيوانات التي ظهرت في الفن المسيحي. وفي هذه الحالة فان الفنان الذي تولى رسم الحيوانات في المخطوطات الأسلامية واحد من ثلاثة: اما مسيحي او نقل بصورة مباشرة من اصول مسيحية او انه رسمها وفق اسلوب الفن المسيحي[٢٣].

فكتاب ((البسيطرة)) مثلا كان من عمل احد اتباع الكنيسة الشرقية وقد اتصف ببساطة رسومه برغم وجود قوة وحيوية في التعبير الامر الذي يعطي انطباعا انها صورت من قبل اشخاص لهم دراية في التصوير ويستبعد كونه مسلما. ولا يعني هذا اتصاف عمله بالدقة فنراه احيانا يدخل في روحية الأصل البوذي للحكايات المنسوبة الى الحيوانات التي تتصرف كما الانسان وهو امر لا نجده في غالبية التصاوير التي رسمها الفنان المسلم[٢٤]. وهناك امر تجدر الأشارة اليه فما دام موضوع عالم الحيوان يستقطب عدداً من الناس فان ما وصل الينا من مخطوطات يدل على انها زوقت لأشخاص اقل منزلة من الحاكم او السلطان ذلك ان رسومها يعوزها الكثير من الدقة والعناية فضلا عن ان الالوان المستخدمة ليست غالية الأثمان[٢٥].

التحليل الفني للمشاهد

لقد اثرنا انتقاء بعض من صور المخطوطة لدراستها فنيا وتجاوزنا بعضا اخر اما لخروجها على الأعراف الاجتماعية أو لبساطة أسلوبها إضافة لكونها لا تختلف كثيرا عن المنمنمات التي سنبحثها.

النعامة a١٠

الصورة موضوعة تحت عنوان "حمق النعامة"، يذكر النص ان الناس قالوا "احمق من نعامة" او "اشرد من نعامة" والسبب في انها تترك بيضها عند حاجتها للطعام فاذا ما صادفت بيض غيرها احتضنته وتركت بيضها.

تشاهد في المنمنمة النعامة وقد توسطت المشهد جالسة على بيض بكل دعة تحيط بها ازهار بعيدة عن الطبيعة منها زهرتان مدببتا الأطراف وهو نوع اختصت به المخطوطة اذ قلما نجد زهورا مماثلة لها في غيرها من المخطوطات. كما امتازت هذه الصورة عن بقية صور المخطوطة بدقة التعبير وجاذبية الوانها وتبدو وكأنها رسمت بيد فنان آخر. ولابد لنا ان نشير ان مهمة الفنان في كتاب الحيوان كانت اكثر سهولة من غيره ذلك ان النص يذكر حيوانا واحدا او حيوانين في حين نجد في كتاب ((كليلة ودمنة)) مثلاً يشار الى عدد من الحيوانات او الطيور في الحدث الواحد.

الخليفة معاوية بن ابي سفيان b٢٠

جاء في النص ان الخليفة معاوية بن ابي سفيان خرج يوما يتمشى بصحبة تابعه الذي يفتقر الى صفة الذكورة، ودخل على زوجته ميسون فاستترت منه وتعجب من فعلها قائلا لها: أتتسترين مني وانما هو مثل المرأة؟ فاجابته: اترى ان المثلة به تحل ما حرم الله تعالى؟ رسم الخليفة وتابعه في الجهة اليمنى تحت قوس وجاست زوجته تحت قوس آخر يفصل بينهما عمود وهي تفترش ارضية الصورة، حافية القدمين وقد ظهر باطن

www.dorat-ghawas.com

شكل رقم (١) النعامة

احداهما. يغطي رأسها غطاء اسود ينسدل على وجهها ليحجبه عن المشاهد، وزين رداؤها بخطوط حلزونية، ويشاهد الخليفة ملتحيا وعلى رأسه عمامة ممسكا بسيفه، واسلوب رسم وجهه يماثل اسلوب فنان المقامات في نسخة فينا المنسوبة الى مصر والمؤرخة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م حيث اعتمد المزوق في رسم ملامح الوجه واللحية والشاربين خطوطا سوداء بالغة الدقة، اما تابعه فقد ظهر بوجه امرد وغطاء رأس يشبه الخوذة ويخلو رداؤه من اية زخارف الا انه مؤطر عند الحاشية والرقبة والعضدين والوسط وراح ينظر نظرات جامدة من خلف ظهر سيده.

لقد كان بامكان الفنان استغلال الحدث كونه يصور مشهداً في بلاط الخليفة يوضح بعض الأثاث او السجاد او الستائر لكنه اقتصر على رسم وسادة تجلس عليها زوجة الخليفة. وبرغم ذلك جاءت المنمنمة جميلة ومعبرة اذ لم ينس المزوق ان يضع عليه علامات او دالات تهدي المشاهد الى التفريق بين منزلة خليفة المسلمين بعمامته وبسيفه وبين احد اتباعه. ولم يتبع الفنان اسلوب فناني مدرسة ما بين النهرين الذين كانوا يتعمدون رسم الحاكم اكبر حجماً من بقية الاشخاص او وضع هالة حول رأسه او جعله جالساً على عرش مزخرف اذ اكتفى الفنان برسم العمامة والسيف وهما رمزان لهما مفاهيمهما الخاصة عند المسلمين.

الاسكندر ٢٥a

زينت منمنمة الاسكندر فصلاً يحمل عنوان "ما زعموا في بلقيس وذي القرنين" اشار فيه المؤلف الى ان ام الاسكندر كانت من البشر واباه من الملائكة. ويضيف ان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) حين سمع رجلاً ينادي ياذا القرنين قال: "افرغتم من اسماء الأنبياء فارتفعتم الى اسماء الملائكة؟ ويروي المختار بن ابي عبيب ان الخليفة علي بن ابي طالب (رض) كان يصف الأسكندر بالملك الأمرط.

ينطوي النص على بعض الغرابة وكان بوسع الفنان شحذ مخيلته لرسم مشهد يجتذب المشاهد ولكن ما حدث هو العكس اذ جاءت المنمنمة جامدة حتى انه لم يكلف نفسه بتأطيرها.

يشاهد الاسكندر جالساً على عرش ينتهي بحافتين مدببتين من الاعلى وباطنه مزخرف برخارف نباتية دقيقة شاهراً سيفه وعلى رأسه تاج حافاته مدببة تشبه القرنين. وقد ظهر حارسان يرتديان خوذتين حربيتين وعلى وسطيهما سيفان يحمل احدهما فأساً والآخر قوساً.

لم يأت الفنان بشيء جديد او يضفي لمسة تجعل الصورة متميزة عن غيرها رغم ان النص تضمن صفة لخاصية بعيدة

www.dorat-ghawas.com

عن المألوف. ولكن يبقى جانب ايجابي فيها هو ادراك الفنان ان الاسكندر ليس بخليفة مسلم فاستبدل العمامة بالتاج.

ام جعفر ٢٩a

يحلي المشهد فصل ((مما زعموا في الخلق المركب وفيه وصف لنوع من السمك يسمى الشبوط الذي لا يتكاثر من جنسه فهو ولد الزجر والبني وهو امر لا يقرد الجاحظ)).

يروي الجاحظ ان ام جعفر بنت جعفر بنت المنصور قد جمعت في بركة كبيرة عدداً من اسماك الزجر والبني فمات اكثره واستطاعت البقية التكيف مع بيئتها الجديدة وانتجت سمكاً لا يمت الى الاصل بصلة هو سمك الشبوط.

حددت المنمنمة بما يشبه نبتتين مقوستين تنتهيان بزهرتين بعيدتين كل البعد عن النباتات الطبيعية المألوفة. وقسم المشهد على قسمين. السفلي يتضمن بركة سمك يشاهد فيها الماء على هيئة خلايا او دوائر غير منتظمة محددة حافاتها بلون غامق وبدت البركة بهذا الشكل وكأنها مرصوفة باحجار. وطريقة رسم الماء هنا تشبه الى حد كبير تصويرة "بركة القمر" في مخطوطة "كليلة ودمنة"، الورقة ٩٩ اليمنى، سوريا، ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، مجموعة بوكوك ٤٠٠، مكتبة بودليان، اكسفورد.

يستخدم عادة في المخطوطات الاسلامية اللونان الازرق أو الفضي لرسم الجداول والبرك والانهار لكن مزوق مخطوطة "الحيوان" استعمل اللون الازرق بدرجات متفاوتة انتهاء بالاسود.

يحتل مشهد زبيدة القسم العلوي وتشاهد جالسة على الارض حافية القدمين، تحيط برأسها هالة وتشير بيدها اليمنى صوب صحن مليء بالسمك وتشير امرأتان رسمتا بحجم اصغر قصد بهما الفنان انهما جاريتان تعملان في بلاط الخليفة الى

شكل رقم(٢) الخليفة معاوية

صحن السمك الذي هو الشبوط.

تعد هذه التصويرة من المشاهد النادرة في التصوير الاسلامي اذ رسم فيها الفنان امرأة عربية مسلمة هي ابنة الخليفة حاسرة الوجه فقد عودنا الفنان على تجنب رسم السيدات العربيات المسلمات من اللواتي يتمتعن بمنزلة عالية في الدولة وان كان النص يشير اليهن فانه غالباً ما يختار مشهدا تغيب فيه مثل هذه الشخصيات النسوية كما في تصويرة السيدة التي زينت افتتاحية كتاب "الترياق" التي عرفت على انها زوجة لحاكم او زوجة صاحب المخطوطة. لكن المزوق لم يجد حرجا في تصوير سيدات مسلمات ينتمين الى طبقة العامة كزوجة ابي زيد في

www.dorat-ghawas.com

((المقامات)) وجواري البلاط في العديد من المنمنمات الاخرى.

وتجدر الاشارة الى ان احدى الزخارف الفسيفسائية التي تزين قصر خربة المفجر الذي يعود تاريخ تشييده الى العصر الاموي ٧٢٤ ـ ٧٤٣م تصور مشهدا لسكين بمقبض اسود ونوع من انواع الفاكهة بلون اصفر وبني ينبثق منها غصن ببرعم صغير. فُسر هذا المنظر: ان الفنان قصد به رموزا ذات معان دفينة. فالسكين رمز الى الخليفة صاحب القصر، والفاكهة الى زوجته والبرعم الصغير الى ابنه او ولي عهده، والارضية التي رسمت عليها تمثل المراة الولود والسكين رمز للاثر وربطة الجاش والوريقة الغضة للانجاب وهذا تحليل او مجرد تخمين جاء استنادا الى الذهنية العربية ذلك ان مغزى المشهد واحتلاله مكانا ظاهرا للعيان هما حقيقتان لا ينبغي التغاضي عنهما اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار مكانة القاعة التي زينتها واذا ما استحضرنا في اذهاننا الحياة التي كانت تدور على ارض حمام قصر خربة المفجر[٣].

وما يعنيه التفسير ان الفنان ربما وجد حرجا في تصوير زوجة الخليفة هشام بن عبد الملك الذي تنسب اليه بناء القصر اكراما لمنزلتها كونها زوجه لقائد المسلمين.

وهذا التخمين يعوزه الكثير من الاثبات فليس هناك من شك في ان حبة الفاكهة هذه لا ترمز الى زوجة الخليفة ولا الى أي امراة اخرى لسببين: الاول، ان هذا القصر وبقية القصور التي شيدت في العصر الاموي كقصير عمرة وقصر الحير الغربي رسمت على جدرانها نسوة باوضاع مختلفة. كما تقع هذه العمائر على مسافة بعيدة عن حاضر الخلافة الاموية دمشق وفي اطراف الصحراء، وقد اتفق علماء الآثار الاسلامية على انها اتخذت للهو والاستراحة والصيد. اذن ليس هناك من سبب يجعل الفنان يصور اقطاب الخلافة في اماكن كهذه.

شكل رقم (٣) من قصير

الثاني ان المشهد زين ارضية الحمام ومن غير المعقول ان يرسم الخليفة وزوجته وولي عهده على مكان تطاه الاقدام حتى لو كانت رموزا.

تخلو منمنمة كتاب ((الحيوان)) من أي عنصر معماري كالاعمدة والاقواس والقباب رغم ان المشهد يصور بركة تعود لزوجة الخليفة ومن المؤكد انها من قصر منيف.

عثمان بن حيان / والي المدينة ٣٦ه

اشار النص تحت عنوان ((اثر تحريف كتاب هشام بن عبد الملك)) الى ان الخليفة الاموي ارسل الى عامله على المدينة عثمان ابن حيان كتابا يطلب منه احصاء عدد المخنثين في المدينة.

www.dorat-ghawas.com

شكل رقم (٤) أم جعفر

يرى الوالي جالسا على فراش مزخرف بزخارف نباتية فوق الارض وكان ذلك دقة ملاحظة من الفنان اذ لا يمكن لوال الجلوس على العرش، يرتدي عمامة اسلامية. اما رسول الخليفة فقد وقف امامه منتصبا وعلى رأسه عمامة اصغر من تلك التي يرتديها الوالي وهي ملاحظة ذكية اخرى ويقصد بها المزوق ان الرسول ادنى منزلة لكنه من جانب آخر جعله يقف منتصبا لكونه مبعوث الخليفة ولمسة ثالثة وظفها الفنان للتفريق بين منازل الرجال الثلاثة بان رسم الحارس يقف وقفة خضوع، حاني الراس وبيده رمح قصير.

يمسك الوالي بكتاب الخليفة الذي صور على هيئة ورقة طويلة تقرأ فيها كلمة "المخانيث" التي احتلت عرض ورقة بكاملها.

تفتقر اجسام الشخصيات الى الدقة فليس هناك من تناسب بين اعضاء الجسم. يضاف الى ذلك ان الزخارف اقتصرت على الملابس والفراش وكان بمقدور المزوق استخدامها بشكل أوسع وهي فرصة طالما انتهزها فنانو المخطوطات الاسلامية لاظهار مهارتهم فيعمدون الى توزيع زخارف نباتية دقيقة على الاثاث والملابس والعمائر وكل ما يقع تحت ايديهم وعادة ما تكون زخارف رائعة غاية في الاتقان وما يزيد من جمالها استخدام اللون الذهبي. ورغم ان المشهد يصور غرفة الا انه يخلو من رسوم العناصر المعمارية.

إتيان النساء ٤٠a

يتناول موضوع المنمنمة شكوى احدى الزوجات الى زوجها الذي يجهل سبل الغزل.

يشاهد ثلاث نسوة احداهن الزوجة والثانية مرافقة لها جالستين على وسادة وقد وضعت احداهما سبابتها في فمها وهي علامة التعجب. ويلاحظ ذلك في كتاب "عادة العلماء" ووصفتها ايتل بانها "دلالة على الحيرة والرغبة في معرفة امر مهم والاستغراق في التأمل"[١٣] كما تشاهد هذه الحركة بوضوح في المخطوطات المغولية لاحقا.

يغطي جسم المرأة الثالثة ملاءة طويلة وتنتعل حذاءا مدبب الاطراف، وتحمل بيدها اليسرى منديلا وخلفها غصن نباتي مورق ينتهي بزهرة مدببة الاطراف.

رفع المزوق شكوى الزوجة الى امرأة واضعا في الحساب ان مثل هذه الشكوى التي تتصف بالخصوصية لا يمكن ان ترفع الا الى امرأة اخرى. والمرأة الثالثة على الاغلب من النسوة اللواتي يتعاطين السحر والشعوذة واللواتي يشكلن من صدود

www.dorat-ghawas.com

الزوج يذهبن عادة الى قارئات الطالع لايجاد مخرج لهن.

تماثل الخطوط الرفيعة التي رسمت بها الوجوه منمنمة تمثل برج العذراء في كتاب "الكواكب الثابتة" للصوفي. ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، مجموعة مارش. رقم ١٤٤. مكتبة بودليان. اكسفورد. اذ استخدم الفنان خطا واحدا يبدأ من العين اليمنى وينحدر الى الاسفل مكونا الانف والعيون اللوزية والفم الدقيق. كما يذكرنا الدورق والاناء اللذين اشارت اليهما المرأة الثالثة بواعية الادوية التي استخدمها صيادلة مخطوطة ((الترياق)) حيث يجلس الصيدلاني وقد التف حوله عدد من النسوة والرجال.

وللتصويرة اهمية خاصة لكونها تعكس واحدة من العادات التي كانت شائعة في مجتمع القرن الرابع عشر الميلادي.

اللعب بالطيور ٤١

يصف الجاحظ اخلاق وطبائع الذين يفتقرون الى صفة الذكورة بميلهم الى العبث واللعب بالطير وهي صفة كما يرى ملازمة للنساء والصبيان، الى جانب الشره في الطعام والبخل والشح.

رسم الرجل المعني في هذه المنمنمة على هيئة عبد اسود يرتدي ملابس تختلف عن الملابس التي يرتديها رجال المخطوطة فعلى سبيل المثال استعيض عن العمامة التي زينت رأس الخليفة معاوية والوالي وخوذ الحراس بمنديل ذهبي اللون ويرتدي قميصا احمر اللون وسروالا مزخرفا بنقوش نباتية وشد على خصره حزاما طويلا يصل الى الركبتين.

اختار الفنان من بين النعوت العديدة التي ذكرها المؤلف كالشح والشره صفة اللعب بالطيور وهو بلا شك منظر يتسم بالحيوية. يرى الرجل يمسك بقفص طيور مفتوح وكأنه قد بدأ لتوه بممارسة اللعبة.

اكد المزوق ضعة منزلة الشخصية بجعله اسود يرتدي ملابس زاهية الالوان اقرب الى زي النساء. وهذا الزي له ما يماثله في مخطوطة ((مادة الطب)) فقد كان يرتديه العاملون في قطع النباتات الطبية وهي الفئة الادنى منزلة من الحكماء والعشابين وهذه المنمنمة كسابقتها لها اهمية اجتماعية اذ توضح لنا واحدة من الالعاب السائدة انذاك وربما كان هواة الطيور يمارسونها على الارض كما هو واضح من النبتة التي انبثقت من وسط الصورة وليس فوق اسطح المنازل كما هو معروف لدينا.

ملاحظات عامة

للمخطوطة جوانب ايجابية وسلبية كثيرة لعل اهمها:

* ان مؤلفها شيخ من شيوخ الفكر والادب. وانها من المؤلفات العربية التي حظيت باهتمام كبير من لدن القراء بغض النظر عن منزلتهم الاجتماعية.

*انها لمؤلف عربي اسلامي بحت وهذا ينفي عن مزوقها صفة التقليد. فكثيرا ما ينسب الدارسون الغربيون رسوم المخطوطات الاسلامية الى اصول بعيدة عن هذه الحضارة كما هو حال كتابي ((مادة الطب)) لديسقوريدس و ((الترياق)) لجالينوس اليونانيين اللذين ترجما الى العربية وزينا بتصاوير عديدة. وقد اكد الباحثون في دراستهم ان الفنان المسلم استنسخ صورها عن المخطوطات اليونانية، رغم ان منمنماتها اتسمت بانطباع العربي المسلم وهذا ما نلمسه في ملامح الأشخاص والازياء والعمارة والمناظر الطبيعية.

*ان صورها لم تدرس دراسة فنية من قبل المعنيين بالتصوير الاسلامي عدا (اوسكار لوفكرين) من جامعة اوبسالا الذي عثر عليها عن طريق الصدفة في عام ١٩٢٩م في مكتبة الامبروزيانا بميلانو و(كارل لام) الذي شاركه وضع مؤلف عنها.

*انها تشكل حلقة مهمة من حلقات المدرسة المملوكية المتصوير وهي مدرسة فنية اسلامية نشأت بعد غزو المغول لشرق العالم الاسلامي.

* خلو صورها من العناصر التزينية التي تستخدم عادةفي المنمنمات الاسلامية ونقصد بها اغصانا نباتية دقيقة تلتف وتتشابك لتؤلف زخارف جميلة تزين العمائر والملابس والاثاث.

*استخدام الرسوم البشرية الى جانب الحيوانية. ويعود السبب الى ان الفنان ربما ادرك ان رسومه اذا ما اقتصرت على الحيوانات وهو الجانب الاساس الذي يتناوله الكتاب فسيكون عمله مملا ومتشابها ولذلك حرص على انتقاء احداث ذكرها الجاحظ وشارك فيها بنو البشر وبذلك اصبحت رسوم

www.dorat-ghawas.com

المخطوطة منوعة واكثر اهمية.

*يحتسب للفنان انجازا كبيرا وهو اقدامه على تجسيد شخصيات نسوية تنتمي الى بيت الخلافة كزوجة الخليفة معاوية بن ابي سفيان وزبيدة اذ لم يجرؤ فنان مدرسة ما بين النهرين على رسم سيدات يتمتعن بمنزلة اجتماعية رفيعة، واعتدنا على مشاهد تمثل جواري يرقصن او يعزفن على الات موسيقية ونسوة من طبقة العامة.

* استخدم الفنان رموزاً للتفريق بين الرجال الذي ينتمون الى طبقات اجتماعية متباينة كالعمامة والسيف لرجال الدولة المسلمين، وهما رمز القوة والسلطة، في الدولة العربية الاسلامية، والخوذ للحرس، والمنديل للشخص الذي لا ينتمي الى عالم الرجال. وحدث الشيء نفسه للازياء.

* يلاحظ غياب بعض الرموز التي استخدمت في المدرسة العربية للتصوير، مثل الهالة الذهبية التي تحيط برؤوس الرجال من ذوي المراكز العالية واحيانا ترسم حول رؤوس اشخاص عاديين. واستبدال العروش بوسادة متواضعة على الارض.

*انها عكست عادات كانت سائدة في القرن الرابع عشر الميلادي مثل الالتجاء الى قارئات الطالع واللعب بالطيور. ورغم ان الحالتين المذكورتين في النص الذي سبق تصوير المخطوطة الا انهما جاءتا معبرتين وبدتا وكانهما مألوفتان للمزوق.

*خلو الرسومات من العمائر عدا بعض الاعمدة والاقواس البسيطة. وهذه حالة تحدث في الصور التي تزين المخطوطات الاسلامية، فالعمارة الاسلامية بقبابها واعمدتها وعقودها

شكل رقم (٥) والي المدينة

عنصر هام يضفي على المشهد مزيداً من الاهمية والجمال.

* خلو الرسومات من الاثاث المنزلية كالاواني والستائر والوسائد المزخرفة بالعناصر النباتية والهندسية.

*رغم ان الفنان كان دقيق الملاحظة الا ان ريشته لا تدل على كونه فناناً محترفا فالبعد الثالث او المنظور في سبيل المثال، معدوم في جميع اعماله وجاءت رسوماته البشرية والحيوانية والزخرفية بسيطة.

www.dorat-ghawas.com

شكل رقم (٦) اتيان النساء

الهوامش

١. الزركلي، خير الدين، الاعلام، بيروت، ب . ت. ط٢، ج٥، ص٢٢٩ - ٢٤٠.

٢. ابن النديم، ابو الفرج محمد بن ابي يعقوب، الفهرست، تحقيق رضا. تجدد، طهران ١٩٧١، ص١٣٠.

٣. الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، القاهرة ١٩٦٥، ط٢، ج١، ص٨.

٤. الجاحظ، عمرو بن بحر، كتاب البلدان، تقديم وتعليق صالح احمد العلي، مستل من مجلة كلية الاداب، بغداد ١٩٧٠، ص٤٤١.

٥. ابن النديم، المصدر السابق، ص٢١٠.

٦. الجاحظ، الحيوان ص١٠ - ١١.

٧. Lofgren, o., Ambrosian Fragments of An Illuminated Manuscript Containing the Zoologyof Al-Gahiz, with a contribution: The miniatures : Their Origin and style by Carl John Lamm, Uppsala ١٩٤٦, P.١٤.

٨. Ibid., P. ١٥.

٩. Ibid.

١٠. الجاحظ، الحيوان، ص٤٣.

١١. Lofgren, op. Cit, P. ٢١.

www.dorat-ghawas.com

شكل رقم (٧) اللعب بالطير

١٢. Imid ., P. ٢٠.
١٣. Ibid., P. ٢١.
١٤. Ibid., P. ٢٥.
١٥. Ibid.

١٦. حسن، زكي محمد، مدرسة بغداد للتصوير الاسلامي، بغداد ١٩٧٥، ص١٥.

١٧. اشتغهاوزن، ر.، فن التصوير عند العرب، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه، بغداد ١٩٧٤، ص١٣٥.

١٨. المصدر نفسه.

١٩. Lamm, C.J., "The Miniatures: Their Origin and style", Ambrosian Fragmeats of An Illuminated Manuscript Containing the Zoology of Al -Gahiz, Uppsala ١٩٤٦, p.٣٦.

٢٠. اشتغهاوزن، المصدر السابق، ص١٩٣.

٢١. المصدر نفسه، ص١٥٦.

٢٢. Etil, Esin, Art Of The Arab World, Washington ١٩٧٥, p. ٩٣.

٢٣. Ibid.

٢٤. Grube, E.,Islamic Painting From ١١ th To The ١٨ th Century, Newyork, n.d.,p.٢٥.

٢٥. Arnold, T.W., Painting In Islam, oxford ١٩٣٩, p.٨١.

٢٦. Ibid.,P.٨٠-٨١.

٢٧. Ibid.,p.٨٠.

٢٨. Grabar,O., "The Painting", Khirbat Al - Mafjar, R .W.Hamilton, oxford ١٩٥٩,p.٣٣٦ - ٣٣٧.

٢٩. Etil, op.cit., P.٥٥.

www.dorat-ghawas.com